



في عاصفة نادرة في قسوتها في هذا الجزء من العالم، يسجل مئات الناشطين السوريين واللبنانيين ملحمة صغيرة في مساعدة عشرات الآلاف من اللاجئين السوريين المتزوكين للثلج والبرد والموت البطيء.

أفراد وجمعيات أهلية محدودة الإمكانات قرروا تحمل مسؤوليات تمنع الحكومات والمنظمات الدولية الكبرى عن المساهمة في التخفيف من جسامه أعبائها. لم تعد مأساة اللاجئين السوريين تحرك شيئاً، لا في المشاعر الإنسانية ولا في الحسابات السياسية. قضية مهملة متزوكة لعوامل الطبيعة، تضاف إلى عشرات القضايا المشابهة تعطيها وتجذب الاهتمام المفترض أن تلقاء قضايا أخرى في منطقة تنهار مكوناتها السياسية والاجتماعية واحدة بعد الأخرى.

ومن بين الصامتين والمترججين الباحثين عن مبررات للامبالاتهم، نادرًا ما يشار إلى المذنب الحقيقي والأول في هذه الكارثة الإنسانية.

سفير النظام السوري في بيروت يلزم الصمت.

حكومة دمشق ساكتة.

الرئيس الذي اقتحم خط المواجهات الأول في حي جوبر ليس متوفراً للتعليق، على رغم كل رطاناته وتحليلاته الاستراتيجية عن مستقبل العالم ودور نظامه في مكافحة الإرهاب.

لا! الأسد غير معني بهذه المصيبة التي يفترض أن يشارك اللبنانيون والسوهيون في تحملها. فهو لم يدمّر البلدات والقرى ولم يطلق جلاوزته لاعتقال الناس على الهوية ولم يقصّف بالطيران والبراميل الأفران والمدارس والمساجد. لذلك، يتجاذل اللبنانيون والسوهيون بحمية وحدة ويتقاذفون الاتهامات بالقصص والعنصرية فيما يقع البعض دافئاً في «قصر الشعب».

ولم يترك النظام السوري دليلاً لم يقدمه على عدم استعداده للمساهمة في الكارثة التي صنعوا بيديه. في آب (أغسطس) الماضي، منع مئات من اللاجئين الهاجرين من المعارك في عرسال من العودة إلى قراهم.

وبكلها بأشهر تذكر لوعود قطعها أتباعه الذين استخدمو أساليب الترهيب والترغيب لحمل اللاجئين على المجيء إلى سفارته «لتجديد البيعة» للرئيس. وعندما صدق بعض اللاجئين الوعود وحاولوا العودة كانت مدرعات الجيش العربي السوري في انتظارهم على الحدود لتردهم على أعقابهم إلى مخيمات الذل والعوز.

السؤال المطروح هنا ليس عن سبب امتناع النظام عن المساعدة في تخفيف معاناة اللاجئين، بل العكس، عمّا يحمله على التراجع عن سياسة نفذها عن سابق تصور وتصميم.

العاصرة الثلاجية تُكمِّل سياسة اعتمادها النظام في القضاء على مواطنيه غير المرغوب فيهم وتخدم أفكاره في التغيير الديموغرافي في سوريا وإرباك خصوصه في لبنان (الذى تقوم سياساته على التوازنات الطائفية) بكارثة إنسانية وبخطر التغير في نسب السكان وبصراعات سياسية لا أول لها ولا آخر.

الموت برأً هو العنصر الجديد في مشروع التخلص من الكتلة السكانية المناوئة للنظام في مناطق يريدها تحت سيطرته الكاملة. عليه، سيتفرج سعيداً على الآخرين يغرقون في تفاصيل المعاناة والمشكلات التي تحملها، على تصاعد العنصريتين المتقابلتين، اللبنانيّة والسوّريّة، وهذه ليست إلا علامة عجز الجانبيّن عن الخروج من مأزق سقطاً فيه ولا يملكان في مواجهته غير أفكارهما المسبقة والجاهزة الغنية بالمرارات والكراهية، للتعامل مع الآخر ومع أزمة من طراز جديد خرافية الأبعاد.

وفيما يشن «معارضون» سوريون حروباً دونكيشوتية من بيوتهم الدافئة في بيروت وغيرها، على من يفترض أن يكسروا دعمهم وتأييدهم، ضاربين عرض الحائط بتضحيات ناشطين لبنانيين وسوريين، يموت مواطنهم اللاجيء برأً وقهراً بعد ما حاول النجاة من التطهير الطائفي في بلده.

الحياة اللندنية

المصادر: